التابو في رواية (قياموت) لنصيف فلك

علي گشاد عبدالله [١]، سركوت كوريل ابراهيم [٢]، آزاد عبدالله محمد [٣]
[١،٢،٣] قسم العربية ، فاكلتي التربية ، جامعة كويه، إقليم كوردستان، العراق

المستخلص:

يلجأ النص الروائي ـ غالبا ـ إلى الصمت أو السكوت أو التمويه أو ترك فراغات ليجبر القارىء على بذل جهد أكبر لملء هذه الفراغات، إذ يمثل النص الروائي إلى ضغوطات السلطة الإمبريالية وأجهزتها القمعية، فضلا عن وقوعه تحت وطأة الدين والأعراف والتقاليد المتوارثة، ناهيك عن تأثير القهر الذي يمارسه الجنس بحقه، فلكل هذه المحظورات أثر كبير في إرغام الروائي عن الابتعاد عن المواضيع الحساسة والمراوغة بالاعتماد على حسه الفني والجمالي في كتابة النصوص. لذا تسعى هذه الدراسة إلى البحث عن التابو في رواية "قياموت" للروائي العراقي نصيف فلك، الحاصل على شهادة البكالوريوس في الإخراج والتمثيل من أكاديمية الفنون الجميلة سنة 1979. إذ كتب العديد من المقالات في الكثير من الصحف العراقية، ويكتب الشعر والقصة والرواية والمذكرات. وينقسم البحث إلى مبحثين تسبقها مقدمة، إذ رصد المبحث الأول التابوهات السياسية في الرواية، وتناول التابوهات من جانبها النظامي وجانبها الاجتماعي، مسلطا الضوء على تعامل الراوي مع هذه الجوانب، وكيف جعل من التابوهات أداة لرفض الواقع المعيش، أما المبحث الثاني فتناول التابوهات الدينية ومن جوانب عديدة، منها: (تعريض النفس للتهلكة، والرشوة، وضعف الإيمان وتذبذبه، وانتهاك المقدسات)، وبين البحث أثر المصائب والفواجع في كسر هذه التابوهات من قبل الروائي، وينتهي البحث بخاتمة تتضمن مجموعة مهمة من النتائج التي توصل إليها البحث.

مفاتيح الكلمات: التابو، المسكوت عنه، المحظور، المحرمات، قياموت.

المقدمة

الحمد الله الذي علم الإنسان ما لم يعلم، وميزه عن سائر مخلوقاته بالبيان، والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أفصح العرب قاطبة وأبلغهم بيانا والذي آتاه الله جوامع الكلم، أما بعد: فإن التابوهات تتطلب من القارىء قراءتها وتأويلها وفق المعطيات الثقافية والنقدية التي يمتلكها، مستعملا المعايير التي تنسجم مع طبيعة النص، إذ إن لكل جنس أدبي خصوصيته التي تفرض عليه لونا من التعامل وضربا من الرؤية للتحليل والمعاينة المعرفية، وتمثل الرواية في الأدب العربي جنسا أدبيا له حضوره القوي، ولا سيما في الأدب العربي المعاصر.

وبما أن الدراسات الحديثة اتجهت بصورة جادة صوب دراسة الرواية، لذا ارتأينا دراسة رواية من روايات الروائي العراقي (نصيف فلك) الذي يحفل في الآونة الأخيرة بالاهتمام من قبل الدارسين، علما أن رواية "قياموت" تتسم بالعمق الدلالي وتصوير حياة الإنسان العراقي والمصائب التي حلت به، وتمتلىء بالصور المتنوعة والرائعة، وبعد أن توافرت للموضوع مقوماته البحثية، عقدنا العزم على دراسة التابو في رواية (قياموت) لنصيف فلك.

لقد فرضت طبيعة البحث تقسيمه على مبحثين تسبقها مقدمة وتمهيد مشتمل على: (التعريف بماهية التابو وإشكالية المصطلح، وملخص للرواية، ونبذة موجزة عن الروائي)؛ المبحث الأول: تطرق إلى رصد التابوهات السياسية داخل الرواية المدروسة من جانبيها النظامي والاجتماعي، إذ بين قدرة الروائي في التعامل مع الموضوع وكيفية توظيفه للتابوهات خدمة للرواية ومضمونها، ويليه المبحث الثاني: إذ تناول التابوهات الدينية من جوانب عديدة، ومنها: (تعريض النفس للتهلكة، والرشوة، ضعف الإيمان وتذبذبه، وانتهاك المقدسات)، وأظهر البحث أثر المصائب والفواجع في كسر هذه التابوهات، وينتهي البحث بمجموعة من أهم النتائج التي توصل إليها، فضلا عن عرض المصادر والمراجع المستعملة في الدراسة.

وقد اعتمد البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي لملاءمته وطبيعة الدراسة، فالرواية بما فيها من تابوهات سياسية ودينية فرضت هذا المنهج نتيجة التداخل والتشابك الكبيرين بين هذين التابوهين، ناهيك عن الحقبة التي تناولتها الرواية وما تحتويه من مادة خام تصلح للدراسة والتحليل.

وقد واجه البحث بعض العوائق والصعوبات منها تنوع مفاهيم المصطلح وتعدد ألفاظه، فضلا عن صعوبة القبض على دلالات التابو في الرواية المدروسة، ناهيك عن قلة المصادر وشحتها في هذا الباب.

واعتمد البحث على تشكيلة من المصادر أفادته وسهلت عليه طريق الوصول إلى غاياته المرجوة، ومنها (المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي لفاضل ثامر) و(الثالوث المحرم لبو علي ياسين) و(المسكوت عنه في رواية (سقوط الإمام) لنوال سعداوي لبشرى بوداموس) وغيرها.

مجلة جامعة كويه للعلوم الانسانية والاجتماعية، المجلد ٨، العدد ١ (٢٠٢٥)
أُستلم البحث في ٢٤ آذار ٢٠٢٤؛ قُبل في ٩ كانون الثاني ٢٠٢٤
ورقة بحث منتظمة: نُشرت في ٥ آذار ٢٠٢٥
البريد الإلكتروني للمؤلف: sarkawt.gawril@koyauniversity.org
حقوق الطبع والنشر © ٢٠٢٥ على گشاد عبدالله، سركوت كوريل ابراهيم، آزاد عبدالله محمد. هذه مقالة الوصول اليها مفتوح موزعة تحت رخصة المشاع الإبداعي النسبية - CC BY-NC-ND 40.

التمهيد:

أولا/ مفهوم (التابو) وإشكالية المصطلح:

يعد هذا المصطلح من المصطلحات الجديدة في ميدان الأدب العربي، إذ لم يقف المصطلح على تعريف جامع مانع نظرا لتشابكه مع مصطلحات أخرى، لذلك كان لابد من تبيان أبعاد هذا المصطلح ودلالاته، إذ تدل مفردة (التابو) على المقدس أو المحرم أو المحظور أو المسكوت عنه، سواء أكان دينيا، أو جنسيا أو سياسيا، أو عرقيا (قبليا) أو غير ذلك، ويشير تحديدا إلى مناقشة أو كسر فرد أو فئة مواضيع دينية أو جنسية أو سياسية أو عرفية، وحينئذ يحضر التابو بصفته مراقبا على التصرفات والأقوال، وبالذات على الكتابة الإبداعية التي تعد أقدر من غيرها على تقديم ثقافة انتقادية أو مناقضة لكل تابو سائد في المجتمع (المناصرة، 2012م، 41). وعُرف على أنه ((مصطلح يفيد التحريم والمحرم ومعناه الأصلي تحريم استعمال شيء أو المس به خوفا من عواقب تلحقها به القوى الفوق طبيعية))(العلوي، 1998م، 161).

ففي ضوء هذه التعاريف يتضح بأن مصطلح التابو يدل بوضوح على كل ما هو محرم ومحظور ومقدس لا يمكن المساس به سواء كان دينيا أو جنسيا أو سياسيا. فهذا المصطلح ((حديث النشأة يعود ظهوره إلى القرن السابع عشر للميلاد بأوربا، تمخض عن تواطؤ السلطة الكنسية والسياسية على حد سواء... ففي القرن الثامن عشر صدر قانون ينظم مهنة الكتاب نص على منع الكتب التي تمس ثالوث النظام: الدين، الدولة، الملك)) (زاغر، 2008م، 12).

واشتهر عند العرب وشاع قرض الشعر منذ العصر الجاهلي، إلا أن احتكاكهم بالغرب جعلهم يركنون إلى الرواية، كونها جنسا أدبيا يتمتع بالمزيد من الحرية، فراحوا يطلقون العنان لأنفسهم قصد الكشف عن الأغراض الحقيقية للمتحدثين باسم السلطة والشعب، وأيضا كان الحال مع تيمة الدين والجنس. فكان خوض الأدباء في المجال الديني ما هو إلا محاولة لإزالة غموض التضليل عن المقدسات. (بيقه، أبليله، 2020، 12). فلا مناص من أن الرواية هي فلسفة العصر الحديث، فقد ارتدت الفلسفة رداء الرواية للحفاظ على نفسها من مناهضيها، وهذا ما يفسر حضور المسكوت عنه في الرواية وبشكل واسع.

ثانيا: ملخص الرواية ودلالة العنوان:

تعود أحداث هذه الرواية إلى السنوات (2003 إلى 2009)، إذ يصف الروائي الأوقات الدموية التي مر بها العراق بين هذه السنوات بلغة خليطة ما بين المحكي والمكتوب، أي لغة تحاول تحقيق التماس المباشر مع الواقع، ويعلن الكاتب منذ اللحظة الأولى عن توجيه سهامه النقدية للمنظومة الدينية والسياسية بكل انتماءاتها الطائفية والسياسية التي لم تنتج سوى ثقافة الموت، كما يقدم الصورة الأكثر تفصيلا والأكثر أدبية للأحداث. وتتكون الرواية من عشرين فصلا، يحكي لنا كل فصل أحداثا عديدة من ذلك الوقت في سرد سلس، فجميع الفصول مرتبطة بعضها ببعض بشكل رائع، إذ بطل الرواية "برغم" يسكن حي "الحسينية"، يستيقظ على صراخ أحدهم يبشر بقيام يوم القيامة، وبعد ذلك يتلقى "برغم" رسالة تهديد بالقتل، متطرقا إلى بعض الشخصيات المعروفة في ذلك الحي، ومتحدثا عن حالات الاغتيال والاختطاف التي تقوم بها "جماعات الثقوب السوداء" في المنطقة وفي ساحاتها، كما يتحدث فيها عن حالة السخط والاستياء التي يعيشها الإنسان العراقي، وعمليات الإعدام التي تتم في ساحة "الطوبى" في حي "الحسينية" من قبل جماعات الثقوب السوداء بأسلوب أدبي معبر، بالكاد يقدر القارىء أن يقنع نفسه بأنه خارج ساحة الأحداث، إذ تفوح من الرواية وأحداثها رائحة الدم، وتتصاعد من بين سطورها دخان السيارات المفخخة والعبوات الناسفة، وتسمع أنين المصابين والجرحى، وكيف أن الناس ينتظرون بفارغ الصبر وقوع يوم القيامة، كما أطلق الروائي على هذا الانتظار تسمية "جنون القيامة".

وذكر الروائي سبب هذه التسمية عندما قال: إن "معظم (صعاليك القيامة) خرجوا من المزابل والساحات المترية بعد خطفهم وهم قاموا من الموت، هو وحدهم القياموت" (فلك، 2015م، 121)، أي الأشخاص الذين نجوا من الموت المحتوم.

ثالثا: نبذة موجزة عن الكاتب:

ولد (نصيف فلك) في بغداد/ كرادة مريم، سنة (1954م) في آذار أثناء فيضان نهر دجلة، وبدأت انطلاقته الأدبية سنة (1972م) بكتابة أول قصة قصيرة، حصل على شهادة بكالوريوس في الإخراج والتمثيل من أكاديمية الفنون الجميلة سنة (1979م)، ويكتب الشعر والقصة والرواية والمذكرات، بلغة تسهم بشكل واضح في تميز أسلوبه. يطوع المفردة بطريقة جيدة لإيصال فكرته بشكل دقيق، حتى إنه يضطر في بعض المواضع إلى أن يستعمل المفردة العامية المتداولة على أدنى مستوى التداول.

ومن إصداراته:

- النهر الهارب (مجموعة شعرية) سنة 2000م.
- لحية اللقلق (مجموعة قصصية) سنة 2003م.
- صدرت له رواية (خضر والعصر الزيتوني) عن سلسلة دار الصباح سنة 2007م، كما تبعتها طبعة ثانية عن دار الجمل سنة 2008م.
- مختارات شعرية بعنوان (وداعا محنة الكركدن) سنة 2008م.
- رواية (عين الدود) عن دار الجمل سنة 2010م، وله العديد من المخطوطات.
- رواية قياموت - دار سطور - بغداد – 2015م. (نصيف فلك.html areq.net/m/).

المبحث الأول: تابو السياسة:

تعد الموضوعات السياسية أحد أهم المحاور المتناولة في الأدب على الإطلاق، باعتبارها تلعب دورا مهما في الواقع المعيش، وأن سبب إدراج الموضوعات السياسية تحت تصنيف التابوهات هو تلك الصراعات السياسية المؤازرة للدكتاتورية، وتلك الأفكار السياسية المقدسة المُحاطة بمنظومة من الكيانات العرقية المناهضة للنقض والرد، لذا فإنه إذا أراد الأديب التعبير عما يجول في خاطره عن السياسة فهو بحاجة إلى قوة إبداعية وذهنية لتحقيق مراده، فلذلك نرى أنهم قد لجؤوا إلى "إنجاز الأعمال الإبداعية بما فيها من رموز وإسقاطات للتعبير عما يريدونه" (حسن، 2002م، 31).

إن العلاقة التي تربط الأدب بالسياسة تعود جذورها إلى بداية الإبداع والتغيرات التي حدثت على مر العصور والتي جعلت الرواية تسبق الأجناس الأدبية لما فيها من مجال واسع للتعبير، ووضع حلول للمشاكل السياسية والاجتماعية والدينية "فقد استمر تطرقها وارتباطها بالأحداث السياسية يتنامى بتنامي الصدمات الاجتماعية والسياسية، وتراكم الأزمات وكذلك طرح مشاكل التفاوت الطبقي والصراع الاجتماعي والانحراف السياسي"(بوشليحة، 2020م، 105)، فالإبداع عبارة عن رد فعل وانعكاس لما يحدث حول المبدع، أنه يحكي لنا عن خذلان السياسة للواقع، فالأديب يتحدث عن القمع والمنع ومطاردة الكلمات وشنق الأقلام وكسر الأصابع، ولهذا كان لابد له أن يكون أكثر دهاء وتحايلا لتوصيل رسالته من دون أن يُمسك عليه أي دليل (بوداموس، 2021م، 43).

ولذلك يمكننا القول: إن "نصيف فلك" ومنذ بداية الرواية تطرق إلى العديد من التابوهات السياسية حتى نهاية الرواية، وحاول أن ينشر الوعي في أذهان العراقيين الذين وقعوا في أيدي السياسيين الفاسدين. وفي هذا الباب يمكننا مناقشة عدد من القضايا التي تطرح في جوهر رواية "قياموت"، إذ نلحظ تداخل جانبين واختلاطها في هذا الجانب، وهما:

1- الجانب السياسي (النظامي):

لا شك في أن النص الروائي يواجه سلطات قامعة لظهوره علانية، لذا يحاول جاهدا أن يتجنب التصريح والتقرير، لذلك نلحظ أن "نصيف فلك" يوجه كلاما مبطنا ليزيح الستار عن السياسيين والجماعات الدينية ويظهر حقيقتهم التي كانت سببا في نشوء الصراعات، إذ يقول: "... أنا ضد النظام السابق وضد النظام اللاحق، دائما أقول لهم: الحرا أخو البول. ...حطموا تمثال قائد نغولة العقيدة وتشظى إلى قطع دكتاتوريات صغيرة هي التي تحكمنا الآن)" (فلك، 2015م، 38-39). فالمقطع السردي في أعلاه يفضح السياسة في العراق بعد سقوط النظام البائد، إذ حاول الروائي عن طريق توظيف الصورة التشبيهية أن يرفض ويتمرد على النظام السياسي برمته، إذ شبه نغولة العقيدة وجماعات الثقوب السود بالحرا والبول، فعندما يريد العراقي تشبيه أمرين سيئين ببعضهما ببعض يأتي بهذا المثل تعبيرا على سوء الجهتين، ومثله يقول: "فالنظام اللاحق لا يختلف قيد أنملة عن النظام السابق وكأنها توأم فالتهم هي نفسها: جاسوس عميل، خائن، شيوعي، متدين، أضاف إليها النظام اللاحق تهم: كافر، مرتد، فاسق، رافضي،..." (فلك، 2015م، 60).

إن السخرية كانت وسيلة فُضلى لوصف السياسيين ونمط حياتهم، وكان الكاتب لا يريد اتباع الأسلوب التقريري في كشف حقائق هؤلاء السياسيين، فهو يبطن الآراء ويغلفها تغليفا يصعُب معه إظهار مقصديتها، فيتعمد السكوت عنها، لذا ستكثُر التأويلات والتفسيرات حول هذه النصوص المشفرة جزئيا، وهذا ما يبتغيه الكاتب؛ ففي كثرتها وتنوعها يزداد اتساع أفق توقعها من لدن القارىء فتزداد معها مساحة التهم الموجهة إلى تلك الجهات السياسية، فيقول: "ربما اشتق اسم (جماعات الثقوب السود) من الثقوب في رأس الضحايا التي انتقلت وانحفرت في جباه القتلة"(فلك، 2015م، 10). إذ يعزو الروائي ظهور الدمغات السوداء على جبهات السياسيين إلى تلك الثقوب التي حفرت جماجم الضحايا بطلقات نارية وما شابهها، وهذه الجماعات تقتل الناس على أتفه الأمور، فيقول أيضا: "مثل جارنا (نافع أبو الفلافل)، الذي سمعه أحد الوشاة يقول: بأن هذه الجماعات عندهم ثقبين للتغوط واحد في الطيز والآخر في الجبين. بنفس الليلة انتزعوا (نافع) من بيته وأعدموه في ساحة (الطوبى) ...، وربما يكون الواشي لفق هذه التهمة لـ (نافع) لأنه رفض أن يعطيه لفة فلافل مجانية"(فلك، 2015م، 95). يحاول الكاتب أن يسلط الضوء على أبشع أساليب النظام البائد والنظام الحالي في العراق ألا وهو أسلوب المخبرين وتقاريرهم السياسية الواشية بالأبرياء والمساكين من الشعب؛ تلك المهنة التي امتهنها رجال الأمن في السابق، وما زالت تُتبع من قبل الجماعات السياسية الجديدة.

ويحاول الكاتب كشف زيف الحقائق وزيغها عن جادة الصواب، فيسخر من النظام السابق متهكما من قيادته التي ما انفكت تحتفل بانتصاراتها المزيفة، قائلا: "حكومتنا قلبت الدنيا بمهرجانات الانتصار والفرح لأن القائد الفذ بقي على كرسي السلطة لا يدري ما تخبئه الأقدار وكيف سيتحول إلى جرذ" (فلك، 2015م، 141). إذ إن كل ما يهم السلطة هو الكرسي، فكشف المقطع السردي سياسة النظام السابق عن طريق الانتقاص العلني منها ومن قيادتها التي سينتهي بها الأمر في حفرة.

حين التقى "برعم" بطل الرواية بمجموعة من المسؤولين من (جماعات الثقوب السود)، وانتقدوه على ما كتبه من كلمات في مسرحية (الحليب الأسود) بحجة أنها تفسد الدولة والمجتمع، فيقول: "واليوم جاءت جماعات العقيدة كل جماعة تسحب وجه بغداد إليها حتى تكسر واستحوذت عليه جماعات الثقوب السود. ... تهدج صوتي وأنا أسألهم: أين وجه بغداد الآن، أين زمنها وعصرها وتاريخها الحاضر وأين مستقبلها، هل رأيتم كيف سرقوا الزمن؟ أنتم تلبسون هذا الزي وأنا ألبس هذا الزي فمن سرق الزمن؟ " (فلك، 2015م، 176). هنا تطرق الروائي إلى استغلال الدين من قبل الجماعات والرؤساء والسياسيين، فهم يستغلون الشعب بواسطة الدين، ويلبسون العمامة ويفعلون ما يشاؤون متخفون وراء هذا الزي من فساد وسرقة وقتل.

نستشف من المقطع السردي السابق أن السلطة تمارس العنف غير الصريح ضد النص الروائي، مما يضطر الكاتب إلى التلميح والمراوغة وحذف بعض العبارات الحساسة لتجنب المباشرة، وكل ذلك يتطلب من القارىء إجراء فحوصات معرفية للنص بحثا عن النصوص المسكوت عنها أو تلك المحظورة من الظهور والإبانة.

ويقول أيضا: "لمحت بائع الثلج الذي يعرفني من شكلي وأعرفه عن طريق مناداته الساخرة المرحة في بيع الثلج بطريقة ما يجعل الناس يشترون منه ويضحكون على مهازل الحر والصيف والسياسة.

سألته بلهفة وحيرة:

يمعود.. ريحني.. ماذا حصل؟

أجاب بائع الثلج بمرارة قاتلة:

- سرقوا الشوارع ... لم يبق شيء إلا وسرقوه.. واليوم جاء دور الشوارع ... اليوم غبشه سرقوها وبقيت حائرا كيف أبيع الثلج؟" (فلك، 2015م، 18).

وغالبا ما يلجأ الكاتب إلى استدعاء مهاراته في التمويه على الكثير من الموضوعات المسكوت عنها، مما يبعدها كثيرا عن فكرتها الأصلية، وتغدو رموزا تجعل من الخطاب الروائي عالَما بعيدا عن متناول القارىء ورؤيته، فيذكر الروائي على لسان "هندي الحلاق" كيف أن السياسيين يخونون بلادهم ويسرقونه تحت مسميات عديدة ومنها الشرف، فيقول: "محد يشتري لا شرف ولا غيره ولا شهامه.. بقيت شهرين أصيح وينكطع نفسي وينهد حيلي ولا أحد يشتري ويعاين البضاعة.

- رد عليه الزبون القديم:

- يمعود.. شوف النا شرف مناه مناه.. بلكت الله وتلكاه. . الله كريم.. أدور بغراضي القديمة.. يجوز باقي شوية شرف.. بس آني أنصحك لله .. تره الشرف مضر بالصحة وهو سبب رئيسي لأمراض السرطان وأمراض الرئة"(فلك، 2015م، 85)، فعن طريق هذا الحوار المُختزَل تمكن الكاتب من الابتعاد بآديولوجيته كثيرا، وأن القارىء الفطن هو - فقط - من يستطيع إدراك سياقات النص والوصول إلى مفاهيم تسعفه في ملء الفراغات التي تركها الكاتب، إذ "إن النص السردي هو نص مشحون بشفرات ورسائل لا نهائية وهو بمثابة جهاز إرسال سردي متواصل، يتحول فيه المتلقي أو القارىء إلى جهاز استقبال فعال قادر على تلقي الرسالة وإعادة فك شفراتها وتأويلها وصولا إلى إنتاج دلالة النص المحتملة وفق سياقات زمنية وثقافية معينة" (ثامر، 2004، 12)، وهذا ما نلحظه في المقطع السردي الأخير، فإن حل شيفرة "الشرف" سيكلف القارىء قراءة النص أكثر من مرة، وفي كل مرة يكتشف دلالة جديدة للفظة "الشرف". وهكذا أراد الكاتب وضع يده على كل الممارسات السياسية التي تمارس تاثيرها الهدام على وعي المجتمع وأفراده المساكين.

Original Article |**DOI:** https://doi.org/10.14500/kujhss.v8n1y2025.pp303-310

فعن طريق هذا الحوار بين بائع أدوية الأعشاب وزبونه القديم طُرِح السؤال الجوهري، ترى هل من أحد يهتم بالشرف؟ وهل هناك شرف يُباع للسياسيين المستبدين وللقتلة وللسراق؟، فتبين لنا من جواب البائع أن لا أحد يكترث لشراء الشرف، وهو مضر بالصحة، ويجعل من صاحبه مهموما ومصابا بأمراض كثيرة.

وفي نص آخر نلحظ تشظي الآراء الفكرية حول موضوع واحد، وهي طريقة أخرى من الطرائق المتبعة للمراوغة والسكوت عن بعض الأفكار الجريئة، فضلا عن أن بعض هذه المفاهيم مقترنة بسياقات تاريخية لا يستطيع أن يصل إلى مغزاها سوى القارىء الذي عاش تلك التجارب ودونها في مخيلته، فيقول: " .. هذولة بعثيه سفلة من الفضل.. بين فترة وفترة يرمون رصاص

ويعزلون السوق والمنطقة وينسحبون...

يعود يا بعثيه.. هذوله القاعدة...

لا .. لا .. لا بعثيه ولا قاعدة .. هذوله المجاهدين السفلة ...." (فلك، 2015م، 244).

يروم الكاتب في المشهد السابق الخداع، إذ ترك قرار تحديد الفاعل بيد القارىء، وأخرج نفسه من ساحة التوقعات مثل خروج الشعرة من العجين، وترك القارىء يتكهن ويضع حلولا لهذه المساحات الفكرية الشاغرة، محاولا إيجاد أقربها إلى العقل والمنطق. إذ تحدث الروائي عن الجماعات المسلحة المسؤولة عن إطلاق النار، وذكر أكثر من جماعة قديمة وحديثة الظهور على الساحة السياسية والأمنية العراقية، وهو بذلك وضعهم في ميزان واحد، فكلهم عنده سواسية في الفتك بالأبرياء.

ومثله يقول: "يوميا عشرات السيارات المفخخة، ونضحك محترقين عندما يقول ساذج بأن هذه السيطرات تحمينا وتمنع انهيار المدن، نضحك على نكتة سوداء مثل قلب الانتحاري.

يتحدث الناس عن وجود صفقات سرية بين السيطرات وبين جماعات الثقوب السود حتى إن بعض القادة الأمنيين يؤجر السيطرة بمبلغ كبير لساعة واحدة فقط." (فلك، 2015م، 75)

إذ إن كثرة المصائب وصُرُوف الدهر جعلت الناس تتساءل في حيرة عن الفاعل والمسؤول في إقامة هذا الوضع المزري، فلم يكن للكاتب إلا أن يتخفى وراء آرائه، محاولا إضمار أكبر قدر ممكن من آيديولوجيته، لذا لم يُشِر - مباشرة - بأصابع الاتهام إلى الحكومة، بل تستر وراء جزئية السيطرات الوهمية المشتركة في إشعال نار الأزمة واتقادها، وبذلك استطاع أن يفضح الأنظمة الأمنية وهي تساعد الجماعات الإرهابية من أجل منفعتها الشخصية، تاركة الناس أمام مقصلة الجماعات السياسية المتعصبة ومجازرها من دون أن يجهر بآرائه ويطلق أحكامه علانية.

2- الجانب الاجتماعي:

تجلى المسكوت عنه المسيس اجتماعيا في الرواية، بغية فضح الحالة الثقافية السائدة في العراق قبل السقوط وبعده، إذ صار الجانب الاجتماعي عاملا مساعدا للسلطة في الخروج عن المألوف والمعتاد، فيقول: "هنا أيقنت بأن الناس يناضلون ضد أنفسهم ويساعدون الجلاد على افتراسهم ويقتلون كل من يدافع عنهم. صورة الجلاد في عقولهم مقدسة." (فلك، 2015م، 46)

وفي النص السابق تميل السلطة إلى الاستبداد، واتباع شريعة الغاب (البقاء للأقوى)، فالناس يتعاطفون مع القاتل ويقفون ضد الضحية، فيذكر الروائي هذه الأحداث في معرض حديثه عن "برعم" وحالة الاستغراب التي داهمته نتيجة وقوف الناس مع سائق الأجرة والدفاع عنه عندما أراد الأخير مضاعفة الأجرة.

والعجيب في الأمر أن النخبة والمثقفين توزعوا على الأحزاب السياسية المستبدة، وباعوا أقلامهم من أجل منفعتهم الذاتية، فيقول:"أليس عجيبا أن أغلب المثقفين والكتاب والصحفيين كانوا مع سلطة نغولة العقيدة ضد الضحايا، وبعد سقوطهم بالألفين وثلاثة توزعوا على الصحف والجرايد الجديدة حتى انتهوا اليوم بوقوف أغلبهم ضد الضحايا الجدد ومع الجلاد القديم وجماعات الثقوب السود" (فلك،2015م، 33)، لقد استطاع "فلك" من توظيف لعبة تبادل الكراسي بين الظالم والمظلوم بحنكة ودراية، فإن تبادل المواقع وسع من رقعة المسكوت عنه لتخرج من إطار لعبة سياسية إلى إطار لعبة ممسوخة لا يُغيب بها مراد حركة النسيج الروائي، فبهذه الحركة تحول الجلاد والضحية إلى حالة شاذة وأدت ثقافتها وغيرت إعداداتها تحت تأثير السلطات القمعية المتناوبة عليها.

فوظيفة المثقف أو الصحفي هي نشر الوعي والثقافة بين الناس وانتقاد السلبيات وتقديم ما هو أفضل للمجتمع، وإرشاد السلطة لتبقى في المسار الصحيح، ونقدها في حال ناهضت فيه القانون.

إن السياسيين والمثقفين يستغلون الناس والبسطاء منهم، ويخدعونهم بدهائهم، إذ يحاولون الهرب من الحقائق وذلك بقلب الموازين وتصوير الحقائق بعدسات مشوهة لها، فالجريمة تُجمل، والضحية تُدان، وهي طريقة انتهجها الكاتب لتجنب بعض الحقائق وتلافيها، وليسكت عنها ويبعدها عن دائرة الموضوعية وعوامل الإزدراء المستترة فيها، فيقول: "... إن طبقة السياسيين والمثقفين إلا ما ندر، هما أسوء جميع طبقات المجتمع، لأنهما يزينان الجريمة للناس ويجعلونها مفخرة، ويدينان الضحية الساذجة المغفلة البريئة" (فلك، 2015م، 224). وكذا فهم يتكلمون مع العوام باستخفاف وكبرياء، فهل تكيف الناس مع هذا الأمر؟!، إذ فيقول: "... ويبررون جواز لبس القناع بالقول: ماذا تفعل في حضرة قائد وزعيم وقيادي ووزير ونائب وسياسي، هل تمضحك وتتازح ويرتفع صوتك أعلى من أصواتهم أم تنزوي وتحترم نفسك وتصمت فلا يسمع أحد أنفاسك" (فلك، 2015م، 160). وهنا يعطي الروائي صورة معكوسة الدلالات يتوخى فيها الابتعاد عن المباشرة في طرح الآراء، والابتعاد – قدر الإمكان – عن دائرتها المرسومة في ذهن المتلقي والمقتصرة على دلالات ثابتة لا يستطيع الحياد عنها، وهذه طريقة أخرى لإشغال القارئ وإعطائه فرصة التجول في النص لاستنباط أفكار أكثر غزارة في المعنى.

فالراوي أراد الهروب من هذا الواقع ورفض التأقلم مع هذه العبودية وذلك في محاورة "هندي الحلاق" مع "عزرائيل" وهو يطلب منه إنهاء حياته للخلاص من هذه المحنة، فيقول: " .. اليوم أرى الجميع مشتركين في جريمة قتل بلادهم... أرجوك لا أريد البقاء حيا والمشاركة بهذي الجريمة... أرجوك صحح الخطأ فأنا يوميا أنجو وأفلت من عشرات الميتات.. وكلي رعب وفزع أن تكون أمامي ميتات أخرى... وأيضا أفلت منها ..." (فلك، 2015م، 205). نلحظ أن الكاتب لخص كل ما يجري في البلد من دمار وخراب بلفظة "جريمة"، وهي محاولة أخرى للنأي عن التفاصيل، مما يتيح أمام القارىء فرصا جمة لتوقع ما غاب عن النص من دلالات أراد لها الكاتب التخفي والكمون. لذا تطلب الشخصية المحاورة لعزرائيل الموت، وهي حيلة نهائية للخلاص من الواقع المعيش تتوارى خلفها حيل أخرى عديدة، لكن الكاتب أرادها هي لتتسيد بقية المقترحات والحيل كونها أعلى قيمة من مثيلاتها كرد فعل لتمثيل الواقع الذي يعاني منه أبناء الشعب.

كسر الكاتب لتابو السياسة كان بداع فني من النص، فلم يقحم الكاتب السياسة بدون مبررات، فالعزف على وتر المسكوت عنه جاء نتيجة ضعف الإنسان العراقي، فقد عانى العراق الكثير من الحروب والويلات، لذلك حضر المسكوت عنه كلعبة كتابية لجأ إليها الكاتب لمعرفة هذا الإنسان أكثر، والكشف عن طرائق تعاطيه السياسة، فطالما استفز القارىء، فيقول: "... تقف وراء أسباب من الجذر القومي والديني نبت وأزهر وأثمر

جنون القيامة، وكان سماده فشل الأنظمة الوطنية والعلمانية وانتكاسة مشروع النهضة. كنا على وشك فانسحب بساط الوطن من تحت أقدامنا وسقطنا، سقطنا في الماضي الدموي. وبدأ ضرب الناس على الرأس، ضرب بعصي العقائد ....، ... ثم تصاعد ضرب الجمهورية، بعدها تصاعدت وتيرة ضرب الحرس القومي والعارفية، وجاء الآن ضرب البعث حين وصل ضربهم إلى اليافوخ إلى الدماغ حتى تصاعد مضاعفا ضرب القاعدة وجماعات الثقوب السود" (فلك،2015م، 253).

ولم تكن تسمية الاستسلام للموت والخضوع له بـ"جنون القيامة" إلا محاولة رهان من لدن الكاتب يواجه بها مؤرقات الفرد العراقي ومن ضمنها السياسية. ففي تعالي وتيرة القمع تتعالى وتيرة التخفي والاختباء، فيتوارى الكاتب خلف نصوص مشوهة إلى درجة تمحي فيها ملامحها الحقيقية، فيضطر للجوء إلى مصطلحات تحتمل دلالات عديدة ومتباينة في الوقت نفسه، لينأى بنفسه مواجهة السياسيين وجها لوجه من جهة، ويزرع بذرة التفكير والتأمل في مخيلة القارىء من جهة أخرى.

ومثله يقول: "لكن أعراض جنون القيامة بدت واضحة ومخيفة بعد سقوط نغولة العقيدة والقائد النغل حفظه الله ورعاه، لقد رفعوا غطاء البالوعة بعد الألفين وثلاثة فخرجت كل أنواع الأمراض دفعة واحدة وكان أخطرها جنون القيامة" (فلك، 2015م، 68)، وهنا يخرج الكاتب عن صمته وتواريه خلف أستار نصه المحظور، ظنا منه أن لعبة التخفي ورهان التابو قد يفقدان قدرتها على إدهاش القارىء ومفاجئته، فيقرر - حينئذ – تحرير ذاته من قيود التابو كما فعل في تفسيره لـ"جنون القيامة" على أنها مرض من الأمراض أوجدتها الظروف المأساوية التي مرت على العراق وشعبه.

المبحث الثاني تابو الدين:

يكتسب المتن الروائي أهميته عن طريق استنطاق نقدي حداثوي لمكوناته المسكوت عنها، وما الدين إلا واحد من أبرز هذه المكونات والذي بحاجة إلى استراتيجية خاصة لإماطة اللثام عنه لما له من تأثير على فاعلية السرد وحركته.

فالدين من أهم الركائز الأساسية لإقامة مجتمع عادل، إذ يضع العديد من القوانين والقواعد للأفراد والمجتمع ويلزمهم بتنفيذها، ولا شك في أن القوانين تختلف من دين إلى دين ومستوى الانحراف ومستوى الثقافة في المجتمع في جوهر أي دين، فهناك العديد من المحظورات التي تعد خطا أحمر لا يجوز تجاوزها.

ما نريد الإشارة إليه هنا هو أن استعمال الدين يكون مثيرا للاشمئزاز حينما يستعمله القادة السياسيون أو الجماعات المسلحة بوصفه وسيلة لتحقيق مآربهم وجذب انتباه الناس البسطاء، فيقول: "... راح السياسيون ورجال الدين يلعبون على الحبلين: حبل الدنيا وحبل الآخرة.. وها هم اليوم يقصرون حبل الدنيا ويمدون حبل الآخرة حتى تعلق به جميع الناس المساكين فلا يستطيع أحد تركه والفكاك منه لئلا يسقط في العدم، العدم الذي لو قارناه بجهنم فستكون مجرد لسعة جمرة سيجارة خاطفة"(فلك، 2015م، 138)، فهم كثيرا ما يفكرون بدلا عن الناس ويقنعونهم بأن ما يقولونه غير قابل للتفاوض ويجب تنفيذه. وهذا نابع من قلة الوعي في المجتمع، فالبسطاء من الناس يعتقدون بأن هناك من يفكر بدلا عنهم، لذا فهم لا يتعبون عقولهم، ويقبلون بكلام هؤلاء من دون نقاش، ومثاله في قوله: "يريد هنا المؤمن أن يأكل ويضاجع وينام في طمأنينة لأن رجل الدين (الكاهن) هو الحارس والكفيل، وهو من يضع له القوانين، لماذا يتعب نفسه المؤمن إذا ويفكر ما دام هناك من يفكر عنه ويقدم له حلولا جاهزة لمشاكل الدنيا والآخرة"(فلك، 2015م، 96)، إن النص أعلاه معبء بالشفرات التي أراد لها الكاتب التخفي، فهو يبين حالة الوأد الثقافي التي يعاني منها الناس نتيجة التعاليم الدينية العقيمة التي يتلوها رجال الدين والكهنة على مسامعهم، فيصبح المؤمن آلة تنفذ التوصيات من دون تساؤل أو تفكير. إذ إن "الدين يوجه أنظار الناس عن الخلاص المادي إلى الخلاص الروحي، عن الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة".(ياسين، 1978م، 21)

ويرى الروائي أن الدين استعمل كأداة للظلم واستباحة دماء المواطنين، إذ يرى أن العديد من الأحزاب السياسية تنفذ أجنداتها تحت ستار الدين؛ مجردا من رسالته المقدسة وهي تنظيم الحياة وخدمة الإنسانية، ولذلك فإن مهمة المثقفين والكتاب ستكون شاقة في توعية الشعب وتحريره من شبكة الانتهازيين هذه. وعليه فإن رواية "قياموت" تعد من الروايات التي تسلط الضوء على استغلال الدين والانتفاع به لأغراض شخصية، والتمسك بمظاهره لا بجوهره، وهذه القضية عالجها الكاتب بمقاربات عديدة تجلت وهي متجاوزة لتابو الدين، ومن أبرزها:

1- تعريض النفس للتهلكة:

إن دين الإسلام يحرم الانتحار وتعذيب النفس، وتمني الموت والتململ من الحياة من أكبر الكبائر، فيترجى "بلاسم" الموت لنفسه بعد أن هده المرض، وكذا أصدقاؤه يدعون له بالموت العاجل، فيقول:

"- ولكن أخاف يسويها الحظ الخرا وأعيش فإلى أين أولي بوجهي وقد فاتني قطار الموت السريع .. أنا الآن على أحر من الجمر انتظر جلطة مميتة وأنجو من الحياة

- لا نتمنى لك الشفاء والعافية.. ونتضرع إلى الله أن تنام وتصحو ميتا لا حس ولا نفس بجاه العزيز الكريم.

أجابه المخرج (بلاسم) وهو يرفع يديه إلى السماء :

- الله يسمع منك ويعجل علي بصحة الموت.. يمعود من فمك لباب السماء."(فلك، 2015م، 77- 78)، إن هذا التشاؤم لم يأتِ من فراغ، إذ مرت على العراق و أهله مصائب وفواجع متتالية وعلى مر الدهور، فقد كسر الكاتب تابو التعاليم الدينية، وقلب الأمور رأسا على عقب، فمن البديهي أن البشر يبحثون عن الحياة، ومن غير المألوف البحث عن الموت. فضلا عن أن الكاتب أثار ثنائية "الحياة والموت" بأسلوب السخرية الممزوج بواقعية فجة، فإثر ذلك الكل أصبح يحب الموت ويفضله على الحياة.

إلا أن الدين حريص على صيانة النفس وحفظها من الهلاك، إذ جاء في كلامه عز وجل: ((ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين))(سورة البقرة، الآية 195)، لذلك لم يكن من حق الإنسان أن يؤذي نفسه ويهلكها.

2- الرشوة:

تعد الرشوة من الآفات التي تقضي على المجتمعات عن طريق هدم هرم أنظمتها وسياستها في التسوية بين أفراد المجتمع في الحقوق والواجبات، وقد صرح النبي صلى الله عليه وسلم بحرمة الرشوة، إذ ورد عن عبد الله بن عمرو قال : ((لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشي والمرتشي)) (أبو داوود، 1998م، 16).

أعلن الكاتب عن هذا الموضوع وجلاه في روايته، قائلا: "... وهو يفكر ويخطط لطرد الباعة وحرق سوق هرج والتخلص نهائيا من رواد الميدان فكر في استعمال الشرطة البلدية والصراصير والجرذان، لكنه سرعان ما ألغى الفكرة لأن الشرطة والبلدية يعتاشون على أوكسجين الرشوة، أما الصراصير والجرذان فهي صديقة البشر وها هي تتألف وتتكيف مع بضاعة الباعة وأسمائهم"(فلك، 2015م، 165-166)، يتخذ الكاتب من رجل الدين وسيلة للكشف عن مرض الرشوة، وهي محاولة للالتفاف حول الموضوع لكن بغطاء ديني. فها هو الشيخ "فضل الدين اللهيبي" يأمر بإخلاء سوق هرج من الباعة بذريعة قربه من الجامع.

Original Article |**DOI:** https://doi.org/10.14500/kujhss.v8n1y2025.pp303-310

ولم تقتصر الرشوة على الجهات الأمنية بل انتشرت نحو المشاريع والبنية التحتية للدولة، فالرشوة من أشد الآفات فتكا بالمجتمع، إذ تتلون بعدة ألوان كالإكرامية والهدية والعمولة وغيرها، فكلها صور تسعى لطمس الحق، والسكوت عن الباطل، فتطرق "نصيف فلك" إلى هذا الموضوع، قائلا: "وصلنا باب المعظم ونزلنا تحت الجسر الذي مضت عليه ثماني سنوات ولم يكتمل هذا الجسر المكنى بجسر (الحراميه) الذي سوف يكتمل ويتم افتتاحه بيوم وفاة آخر لص. تناوب عليه أفتك اللصوص من جماعات الثقوب السود أصحاب النفوذ عالي المستوى في الدولة، كل مقاول لص يخمط ما تيسر من الملايين ويسافر للخارج فيستبدلونه بمقاول لص آخر ويخمط ويسافر، هكذا تقام عندنا المشاريع العملاقة عن طريق السرقات العملاقة"(فلك، 2015م، 28)، ويتبين من النص في أعلاه أن الرشوة والفساد دخلتا في كل مفاصل الدولة، وغدا رجل الدين مشاركا للسياسي فيها، وهي محاولة من لدن الكاتب في كسر حرمة رجل الدين، وإدراجه مع اللصوص من السياسيين والمرتشين.

إذا، فالرشوة من أعظم الآثام التي نهى الشارع الحكيم عن تعاطيها، فقد جاء في قوله تعالى: {{ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون }} (سورة البقرة، الآية 188).

2- ضعف الإيمان وتذبذبه:

المصائب والفواجع التي مرت على الراوي جعلته يبتعد عن العبادة، مشبها إياها بالتدخين، وكان لرجال الدين والأحزاب السياسية الدينية الذين يستغلون الدين لمصالحهم الشخصية، ويسلبون ويقتلون الناس باسم الله والدين، وإصدار الفتاوى بقتل الأبرياء من أبناء الوطن، الأثر الأكبر في نفسية الراوي. من هنا جاءت فكرة ترك الصلاة والتجرؤ في الانقلاب عليها، إذ يقول: "تركت الصلاة بعد عذاب ومعاناة تشبه معاناة الإقلاع عند التدخين، وأيقنت أن كلاهما الصلاة والتدخين مضران بالصحة. كنت أكبر وأنضج وقميص الدين بقي صغيرا على حاله. بعدما غسلت هذا القميص كش وانكمش وصار أصغر من السابق، غسلته بماء العقل والتجارب والقراءة، أبعدني رجال الدين عن الدين لما يحدث يوميا من فضائع"(فلك، 2015م، 99). فنرى تقلب الراوي من شخص مؤمن إلى شخص تارك للصلاة ومشككا في كل الأديان السماوية، مبينا أنها مستغلة من رجال الدين والكهنة والأحزاب الدينية، وأصبحت ذريعة لقتل الناس. فالراوي كسر تابو الدين لأنه يحذر تاركي الصلاة والمصلين الغافلين عن صلاتهم، إذ قال تعالى: {{فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون}} (سورة الماعون، الآية 4-5)، فالسهو عن الصلاة هو الغفلة عنها والتهاون بشأنها، وليس المراد تركها؛ لأن الترك كفر أكبر. كما أنه في مشهد آخر ذكر طقوسا أخرى بديلة عن الصلاة، وذلك في المشهد الذي سأل فيه "عناد" أخاه "برعم" عما إذا كان "هندي الحلاق" يصلي أم لا؟: "فقال له: لا .. لا يصلي، ربما لديه طقوس صلاة خاصة لأنه قال لي ذات مرة: إن صلاتي تبطل إذا رآني أحد وأنا أصلي" (فلك، 2015م، 121)، وهذا لا ينسجم مع صلاة المسلمين، إذ أمرهم الله بالصلاة جماعة في المساجد والجوامع وهي محاولة أخرى من الكاتب في الإدلاء بدلوه، وفرض رأيه في أكثر الأمور قداسة ألا وهي الصلاة، وهذا كله جاء ردا على الأوضاع المزرية التي عاشها العراق في تلك الحقبة، وسيطر سياسيون متخفون بغطاء الدين على معظم مرافق الدولة.

وقد يخرج الراوي - أحيانا- عن المألوف، ويكسر جميع القوانين المقدسة، فيرفض العقاب ويعتبر الحب دينه، فيقول: "- أنا ديني الحب والله صديقي لا يضمر لي النار والجحيم ولا يغريني ويستدرجني للجنة والفردوس"(فلك، 2015م، 99). إن الأديان متفقة على قيمة العقاب والثواب في كتبها المقدسة، فراح الروائي على لسان إحدى شخصياته يسرد طبيعة استيعابه لهذه التعاليم الدينية، فقلب معطياتها، ففي ظل حب الإله نجد الراوي ينتفض على قيمة الثواب والعقاب، ويكسر المُتعارف عليه في ظل رغبته وميوله وقراءته الخاصة للموضوع المُثار.

ولم يتوقف الراوي عند هذا الحد من كسر التابوهات الدينية، بل لجأ إلى طرح بعض الأسئلة الجوهرية المحظورة، فحين حاولوا قتل "هندي الحلاق" بشتى الطرائق، وسلب كل ما يملكه، وإحراق منزله من قبل جماعات الثقوب السود، يقول: "برغم أنه لم يقطف بعد تفاحة آدم التي تعفنت في الشجرة، ولم يتعرف لحد الآن بحواء، هندي الحلاق) لم يتزوج بعد، لقد لبسته كل التهم المنظورة وغير المنظورة وكانت على مقاسه بالضبط لا زايد ولا ناقص"(فلك، 2015م، 60)، وهذا طرح جديد لقصة آدم وحواء المذكورة في الكتب السماوية، إذ نلحظ من النص أن الخطيئة الحقيقية وراء طردهما كانت الرغبة الجنسية، ولم تكن التفاحة السبب وراء ذلك، إذ إن التهم التصقت بـ"هندي" من دون أي ذنب يُذكَر له.

وكان للقصص القرآنية حصة كبيرة في طرح التابوهات داخل الرواية المدروسة، فحين يتصل "هندي الحلاق" بـ"عيزرائيل" يجري بينهما حوار تناولا فيه قصة مقتل هابيل على يد أخيه، فيقول: "... يحمل بكفه الحجر الأسود وهو يقطر من دم هابيل .. حجر كإسفنجة يقطر دائما وأبدا من ذلك السائل النفيس .... هابيل يشخر بما تبقى في صدره من هواء.. واليوم أراه ممدودا فوق العشب الأخضر .. محزوز الرأس.. رأس بعيون مفتوحة نحو السماء.. تعاتب الله: لماذا خلقتنا ؟"(فلك، 2015م، 204)، فعبارة "تعاتب الله" تكشف عن كسر آخر للتابو الديني، فالمعروف أن الله لا يُعاتب بل تُطلَب منه الأمور بصيغة الدعاء، ولا توجد صيغة يمكننا اعتمادها في معاتبة الله في معظم الأديان السماوية، ومنها الدين الإسلامي، إذ جاء في قوله سبحانه وتعالى: {{إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}} (سورة فاطر، الآية 38)، فمهما وقع على الإنسان من مصائب عليه أن يتحلى بالصبر لعل في ذلك خيرا له.

3- انتهاك المقدسات:

إن الواقع المتأزم الذي تولد نتيجة الانكسارات السياسية بعد عام 2003م دفع الكاتب إلى تعرية الواقع الديني المشوه، محاولا استفزاز الحقيقة الزائفة التي روجت لها الجماعات السياسية لتمرير خطاباتها المتطرفة. إذ يقول الراوي على لسان "عساف": "رأيت أبا حفصة يركع ويفتح حزام وبنطلون المخطوف ويخرج زبه، وبدأ يمص ولحيته الطويلة الحمراء ترفرف، يمص وينود للأمام والخلف حتى رأيت انفتاح ثقب أسود في جبينه، ثقب يشبه الفرج، وبحركة سريعة وخفيفة أخرج زب المخطوف ودسه في ثقب جبينه الأسود وتسارعت حركة النود للأمام والخلف"(فلك، 2015م، 193)، إذ لا ينوي الكاتب الاعتداء على الدين بغية الازدراء منه أو التقليل من سننه وقواعده، بل حاول الكاتب تعرية كل التصرفات التي يدعيها أصحاب الخطب الدينية المشوبة بالدعوات السياسية، فنراه يتطرق إلى علامات دالة على تدينهم المزيف مثل اللحى الطويلة وغيرها، محاولا تجريدهم من سمات التدين الصوري، لذا نلقاه يقابل العنف الذي تولدت منه هذه المحرمات بعنف أشد محاولة في تحطيمها وكسر رمزيتها الدينية، فيقلل من قدسيتها متبعا أسلوبا تهكميا بلغة ازدراء صريحة لا حدود تردعها وتوقفها.

وقضية المرأة لم تكن غائبة عن هذه الرواية، فنرى "برعم" عندما تركت زوجته البيت وذهبت إلى بيت أهلها يسأل أخاه المتدين "عناد" لو كان هو مكانه ماذا كان سيفعل، فيقول: "رشقني بآية وحديث نبوي يختتم به برهان صحة كلامه. طبعا أنا زايده مني أن أسأله ماذا سيفعل، لأني أعرف رأيه الذي لن يخرج عن إطار الشرع والفقه وكتب الفتاوى المشكلة العويصة أنه يصر ويلح علي بالطلاق، لا من باب الكره والحقد فهو

يحترم زوجتي ويقدرها ودائما يشيد بأخلاقها ويعرف تمام المعرفة بأنها ذهبت لبيت أهلها عندما تركت بيتي. لكنه يصر على طلاقها من باب الدين والعرف الاجتماعي فلو عرضنا قضية ترك زوجتي للبيت على رجل دين أو قاضي أو زعيم عشيرة أو أي رجل عادي سوف يطلقون نفس الحكم الطلاق. لأن المرأة عندنا مثل حال السمك: مأكول مذموم. وهي حايط نصيص، واطيء على مر الدهور والعصور منذ غزو العراق أيام الفتوحات"(فلك، 2015م، 126)، نستدل من هذا النص أن المرأة ممتهنة ومهمشة في المجتمع، وأن الدين والعرف والعادات ما هي إلا وسيلة لتأطير تصرفاتها وتقييد حركتها. إن ولوج "فلك" للعوالم المحرمة دون خوف، وقلبه لمعاييرها بجرأة فنية وبلغة مبتذلة، دليل على الحرية في إطلاق العنان للخيال وتوظيف للتابوهات بلا تردد في نسيج الرواية وتفصلاتها، لذا فالتابو المحرم في الرواية لم يعد مسكوتا عنه، إذ إن النص لم يستر مضمراته بل على العكس فقد طرح عوالم جريئة عن الدين في مشاهد فضة ومبتذلة.

وفي مشهد قتل الموسيقي "وحيد الله سعدي" وزوجته بتهمة عزف الموسيقى، يقول: "هذا الكافر المرتد يعزف الموسيقى يوميا بعد الغروب بدل قراءة القرآن.. ولم أشاهده يتوضأ أو يصلي.. وزوجته لعينة سافرة بلا حجاب ولا نقاب.. تسرح وتمرح لا رقيب ولا حسيب.. هذا الموسيقي وزوجته يفسدون أجيالنا ويخرجونهم عن الصراط المستقيم عن طريق تعليمهم دروس الموسيقى بينما نحن بأمس الحاجة إلى دروس في الجهاد"(فلك، 2015م، 114). يتضح من النص أن الكاتب يروم تسليط الضوء على التطرف الديني، فيحاول تعرية الواقع الديني المشوه الذي تولد بعد 2003م نتيجة الصراعات السياسية المتباينة في الأفكار والمعتقدات. وأن النص في أعلاه ليس بحاجة إلى تنقيب أو تفتيش بغرض الحصول على دلالاته المستورة، فقد نقل الكاتب صورة التطرف بلغة صريحة ومكشوفة الدلالات، وهو بذلك لم يحسب حسابا للمحرم، ولم يسكت عنه، بل نقله بصورة واضحة وفجة.

وفي نص آخر نلتمس الاستهزاء من شعائر دينية خاصة، فيقول: "المخدوع بشعوذة دجالين نصبوا عليه وعلى بعض المساكين بوهم شجرة السدر التي تنزف دما يوم العاشر من المحرم وتبكي بدموع ساخنة وهم يقولون ضاحكين خوات الكحبة الدجالة يزقون أغصان الشجرة بدم الدجاج والعجول والغنم قبل يوم العاشر ويغمرونها في الليل بماء مالح لحد الغرق فتبدأ في الصباح بعملية النتح وطرد الدم والماء مع شروق الشمس"(فلك، 2015م، 98)، فضحت الرواية الكثير من الممارسات الدالة على التخلف والجهل بالدين، وبينت أن الدين مادة يمكن استغلالها فرديا وجمعيا من أجل الوصول إلى أهداف ومآرب خاصة، أو أنه وسيلة لإشغال الناس بأمور تبعدهم عن المطالبة بحقوقهم، وأن يبذلوا كل طاقتهم وقدراتهم الفكرية في شعائر دينية تبقيهم في منأى عن التفكير في السياسة والمال والسلطة وما شابهه. وهكذا استطاع الكاتب أن يقف على أبرز الموضوعات المسكوت عنها في بعض شعائر الدين، كاشفا عن أساليب الخداع التي يمارسها تجار الدين من أجل الحصول على مبتغاهم.

جاء ذكر جسر الصراط في القرآن الكريم، فهو بمثابة اختبار للإنسان المؤمن وغير المؤمن من بني البشر، فحين سأل "برعم" البائع عن فائدة العوينات في يوم القيامة، أجابه قائلا: "هي تقوم الرؤية وتصحح المسار لأن في يوم القيامة يكون الصراط المستقيم جسرا عظيما يعبره المؤمنون بسهولة ويسر، لكن الجسر يضيق ويصير مثل الشعرة لغير المؤمنين، لا يستطيع أحد عبوره ويسقطون في سعير الجحيم. لكن هذه النظارات الطبية (عوينات الجسر) مصنوعة خصيصا ليوم القيامة هي تقوي البصر لمن يعاني من بعد النظر أو قصر النظر فوق جسر الصراط المستقيم، هذه النظارة توسع مساحة الجسر فيستطيع عبوره من يلبسها ولا يسقط في نار جهنم"(فلك، 2015م، 88)، بأسلوب بسيط أراد الكاتب كشف بعض استعمالات الدين الزائفة عن حقيقته التي يستند عليها ضعاف النفوس ليحققوا رغباتهم الدنيئة على حساب الفقراء والمساكين، فليس من المعقول أن يقوم الإنسان بخداع الله والعبور إلى الجنة دون حساب، إذ يقول سبحانه: {{يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ }} (سورة البقرة، الآية 9- 10).

نتائج البحث:

لقد أفرزت قراءتي المتواصلة في رواية (قياموت) لنصيف فلك والتنقيب عن التابوهات جملة من النتائج أسوقها على النحو الآتي:

1. إن الحديث عن المحرمات أو التابوهات بحاجة إلى مرجعية ثقافية لدى أي كاتب يريد الخوض فيها، لذلك يختلف تناولها من أديب إلى آخر، كل حسب مقاصده الفكرية، فضلا عن الانتماءات السياسية والعادات المتوارثة.
2. كانت السخرية من الأدوات التي اعتمد عليها الكاتب في تناوله لقيمة المسكوت عنه.
3. توفقت الرواية في كسر التابوهات السياسية، وذلك بمثابة الرفض والتمرد على هذا الواقع المؤلم، وطالما رأينا المزج بين السياسة والدين، إذ يصور السياسيين والجماعات الدينية الفاسدة بأبشع الصور.
4. إن طرح الروائي لأسئلة جوهرية في صميم الدين كان رد فعل لتلك المصائب التي حلت بالعراق في تلك الحقبة وما سبقها، إذ جعلته متذبذب الإيمان، وهذا ما دفعه إلى كسر جدار الصمت والتطرق إلى المحرمات والحديث عنها بصراحة مطلقة.
5. لم يعمد الكاتب إلى كسر التابوهات، فقد أبقاها محرمة حينا، وألغى تحريمها في أحيان كثيرة، إذ انقاد للنص ومتطلباته في ذلك، فليس بالضرورة كسر التابو أو الإبقاء عليه من دون داع، فاللعب بهذه الأداة كان أكثر قوة عندما كان النص يتطلب حضورها من عدمه.
6. لم تكن المحرمات رادعا أمام الكاتب من أن يقول كلمته الصريحة أمام السلطة والمجتمع الديني، لكن اعتماده على المحرمات يسر له الدرب في تناولها في صورة أكثر إيغالا من مفهومها المتداول والمعروف.

المصادر:

القرآن الكريم.

أبو داوود، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، 1998م، سنن أبي داوود، دار الغرب الإسلامي – بيروت.

البخاري، محمد بن إسماعيل، د.ت، صحيح البخاري، دار ابن كثير للطباعة – بيروت.

بوشليحة، عبد الوهاب، 2020م، إشكالية الدين، السياسة، الجنس في الرواية المغاربية، ط2، دار ميم للنشر – الجزائر.

ثامر، فاضل، 2004م، المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق.

حسن، عمار علي، 2002م، النص والسلطة والمجتمع، القيم السياسية في الرواية العربية، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية – القاهرة.

العلوي، هادي، 1998م، قاموس الدولة والاقتصاد، ط1، دار الكنوز الأدبية، بيروت – لبنان.

فلك، نصيف، 2015م، قياموت، ط1، دار السطور – بغداد.

المناصرة، حسين، 2012م، مقاربات في السرد، ط1، دار عالم الكتب الحديث، أربد - الأردن.

ياسين، بو علي، 1978م، الثالوث المحرم (دراسات في الدين والجنس والصراع الطبقي)، ط2، دار الطليعة، بيروت.

بوداموس، بشرى، 2021م، المسكوت عنه في رواية (سقوط الإمام) لنوال سعداوي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة محمد بن صديق بن يحيي – جيجل -، الجزائر.

بيقه، أبليله، محمد، عمر، 2020م، المسكوت عنه في رواية :كامارد. لحاج أحمد الصديق الزيواني، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة أحمد دراية أدرار – الجزائر.

زاغر، نزيهة، 2008م، معمارية البناء السردي بين ألف ليلة وليلة والبحث عن الزمن الضائع، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، بسكرة، مخطوط نقلا عن تجليات التابو في النتاج الأدبي العربي القديم والمعاصر.

(areq.net/m/ نصيف فلك.html).